حجاجية خطاب اللفظ والمعنى
في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني

عبد المنعم المرابط
المغرب

ملخص البحث بالعربية:

بلغت الكتابة التنظيرية في مجال بلاغة الحجاج مستوى من النضج والوضوح، مكن الباحثين في حقل البلاغة عموما، وفي بلاغة الحجاج على وجه الخصوص، بأدوات تحليلية وتأويلية مهمة، أسعفتهم في استكشاف خبايا النصوص واستخراج مكوناتها النوعية وسماتها المميزة، وأصبح بين يدي الباحثين معرفة نظرية صالحة لمقاربة النصوص وتحليلها باعتبارها كلا منسجما، ولم تعد البلاغة فقط معرفة بالقواعد التصنيفية التي انحسرت فيها زمنا طويلا.

بعد هذا النضج والوضوح سعى الباحثون إلى استثمار هذه المعرفة في تحليل نصوص من النثر العربي القديم، قصد نفض الغبار عنها وجعلها نصوصا مسايرة لرؤية العصر، ومستجيبة للأسئلة التي تطرحها هذه المعرفة الحجاجية، ولعل الكتابات الرائدة للدكتور محمد مشبال من قبيل: "البلاغة والسرد: جدل الحجاج والتخييل في أخبار الجاحظ"، وكتاب " خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ " خير ثمرة لهذا الاتجاه، لذلك سعى الطلبة والباحثون إلى الانخراط في هذا المشروع العلمي بغية النظر في النصوص القديمة نظرة متجددة.

من هذا المنطلق، سعيت إلى تطبيق المقاربة البلاغية الحجاجية على نص من النصوص النثرية العربية القديمة، وقد كان كتاب عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " . نظرا للنصوص الحجاجية التي يتضمنها . متنا صالحا للاشتغال، ولاستثمار المعرفة الحجاجية في تحليل نصوصه، قصد الكشف عن طبيعتها وسماتها المميزة.

لذلك عمدت إلى أخذ نصوص من هذا الكتاب تناولت قضية نقدية وبلاغية، تجلت أساسا في الفصاحة والبلاغة، حيث عرض الجرجاني إلى بيان معاني هذه الصفات و بيان موصوفاتها، هل تعود إلى الألفاظ، أم إلى المعاني، أم إليهما معا؟.

بناء على هذا الصراع البلاغي النقدي، حاول هذا البحث مقاربة النصوص التي تجلى فيها الحوار بين الطرفين، من منظور حجاجي يسعى بالأساس، إلى الكشف عن الاستراتيجيات والتقنيات الحجاجية التي استثمرها عبد القاهر في خطابه، لمواجهة خصومه قصد إقناعهم وتغيير آرائهم، مع بيان طبيعة هذا الخطاب والسياق الذي أنتج فيه.

ملخص البحث بالإنجليزية:

Theoretical writing in the field of pilgrims' rhetoric has reached a level of maturity and clarity enabled researchers in the field of rhetoric in general, and in the rhetoric of pilgrims in particular With important analytical and interpretative tools, I helped them explore textbooks and extract their qualitative components and distinctive features. In the hands of researchers, there is a valid theory of approaching and analysing texts as both harmonious, Rhetoric is no longer only a knowledge of the classification rules in which it has long receded.

From this point of view, I sought to apply the rhetorical approach of arguments to a text of ancient Arabic prose. The book of Abdul-Qahr al-Jarjani, due to the argument texts it contains, was valid to work and to invest the argument knowledge in the analysis of its texts, in order to reveal their nature and distinctive features.

So I took texts from this book that dealt with a critical and rhetorical issue, which was mainly manifested in eloquence and eloquence, where Jirjani presented the meanings of these qualities and described them, whether they go back to words, or to meanings, or to them together?

Based on this critical rhetorical conflict, this research attempted to approach the texts in which the dialogue between the two parties manifested itself, from an argumentative perspective, essentially seeking to reveal the strategies and arguments invested by Abdul-Qaher in his speech, to confront his opponents in order to persuade them and change their views, while illustrating the nature of this speech and the context in which it was produced.

مقدمة:

بلغت الكتابة التنظيرية في مجال بلاغة الحجاج مستوى من النضج والوضوح، مكن الباحثين في حقل البلاغة عموما، وفي بلاغة الحجاج على وجه الخصوص، بأدوات تحليلية وتأويلية مهمة، أسعفتهم في استكشاف خبايا النصوص واستخراج مكوناتها النوعية وسماتها المميزة، وأصبح بين يدي الباحثين معرفة نظرية صالحة لمقاربة النصوص وتحليلها باعتبارها كلا منسجما، ولم تعد البلاغة فقط معرفة بالقواعد التصنيفية التي انحسرت فيها زمنا طويلا.

بعد هذا النضج والوضوح سعى الباحثون إلى استثمار هذه المعرفة في تحليل نصوص من النثر العربي القديم، قصد نفض الغبار عنها وجعلها نصوصا مسايرة لرؤية العصر، ومستجيبة للأسئلة التي تطرحها هذه المعرفة الحجاجية، ولعل الكتابات الرائدة للدكتور محمد مشبال من قبيل: "البلاغة والسرد: جدل الحجاج والتخييل في أخبار الجاحظ"، وكتاب " خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ" خير ثمرة لهذا الاتجاه، لذلك سعى الطلبة والباحثون إلى الانخراط في هذا المشروع العلمي بغية النظر في النصوص القديمة نظرة متجددة.

بناء على هذا التصور، كانت فكرة الاشتغال على نصوص نثرية عربية قديمة بمناهج تحليلية حديثة، فكرة شغلت الباحث المبتدئ منذ قدومه إلى الجامعة، فقد شكلت ثنائية الجديد والقديم هاجسا فكريا، سعى منذ التحاقه بالفضاء الجامعي إلى الاطلاع على مناهج ومعارف تتيح له المزج بينهما، وجعلهما زادا فكريا لا ينفصل عن تكوينه الذاتي وأهدافه المستقبلية، إلا أنه لم يتصور يوما أن تكون البلاغة التي صعر خده لها خلال سنواته الدراسية، لِما كانت تحمله من سمعة سيئة، ستصبح أداة معرفية تحليلية تمكنه من تحقيق ما يصبو إليه.

من هذا المنطلق، سعيت إلى تطبيق المقاربة البلاغية الحجاجية على نص من النصوص النثرية العربية القديمة، وقد كان كتاب عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" . نظرا للنصوص الحجاجية التي يتضمنها . متنا صالحا للاشتغال، ولاستثمار المعرفة الحجاجية في تحليل نصوصه، قصد الكشف عن طبيعتها وسماتها المميزة.

لذلك عمدت إلى أخذ نصوص من هذا الكتاب تناولت قضية نقدية وبلاغية، تجلت أساسا في الفصاحة والبلاغة، حيث عرض الجرجاني إلى بيان معاني هذه الصفات وبيان موصوفاتها، هل تعود إلى الألفاظ، أم إلى المعاني، أم إليهما معا؟

لقد كشف الجرجاني عن صراع بين فرق جعلت من ثنائية اللفظ والمعنى أساسا لتصوراتها، فقد رأت جماعة المعتزلة: أن هذه الصفات عائدة إلى الألفاظ، وأن القيمة الجمالية تكمن في اللفظ لا في المعنى، في حين رأى نقاد وبلاغيون آخرون أن صفات الفصاحة والبلاغة خاصة بالمعاني وحدها، وقد وقف الجرجاني موقفا مزج فيه بين اللفظ والمعنى، وجعل هذه الصفات لتلك المعاني التي تحدث من بعد ائتلاف اللفظ والمعنى فيما أسماه بالنظم.

دفع هذا الموقف بالجرجاني إلى محاججة باقي الفرق التي انتصرت للفظ أو المعنى، فخاض معها حوارا في كتابه دلائل الإعجاز، إلا أن محاججة أنصار اللفظ استبد بالجزء الأكبر من الكتاب، وذلك لأسباب كثيرة أهمها: أن موقف اللفظيين استند في أساسه إلى خلفيات مذهبية وعقائدية، فقد تحول الحوار من نقاش نقدي بلاغي حول الفصاحة والبلاغة، إلى نقاش مذهبي بين المعتزلة / أنصار اللفظ، وبين الأشاعرة / عبد القاهر الجرجاني، ليجعل من قضية إعجاز القرآن أساسا له.

بناء على هذا الصراع البلاغي النقدي والمذهبي، حاول هذا البحث مقاربة النصوص التي تجلى فيها الحوار بين الطرفين، من منظور حجاجي يسعى بالأساس، إلى الكشف عن الاستراتيجيات والتقنيات الحجاجية التي استثمرها عبد القاهر في خطابه، لمواجهة خصومه قصد إقناعهم وتغيير آرائهم، مع بيان طبيعة هذا الخطاب والسياق الذي أنتج فيه، وذلك ما عمل الجانب النظري على بيانه.

قبل ذلك، خصصت الفصل الأول لبيان الدعاوى الحجاجية التي تضمنها خطاب عبد القاهر الجرجاني مع الإشارة إلى تأثير الأشعرية في موقفه، كما سيظهر فيما يأتي.

الفصل الأول: دعاوى النص الحجاجي وتأثير الأشعرية في موقف الجرجاني.

تمهيد:

تكاد تكون قضية " الفصاحة بين اللفظ والنظم" القضية الأساس التي قام عليها كتاب الدلائل، فقد شغلت هذه القضية عبد القاهر من أول كتابه إلى آخره، حيث واجه أثناء صياغته لنظرية النظم آراء معارضة، دعته إلى محاججتها وإقامة حوار معها، مما أنتج نصوصا حجاجية يسعى كل طرف فيها إلى إثبات آرائه في الفصاحة والبلاغة.

ينطلق الجرجاني من موقف يرى في البلاغة نظما وصياغة لركني العبارة، ويرى أن الأساس الذي يقع به التفاضل في الكلام هو الصورة التي نادى بها الجاحظ، أما الألفاظ لوحدها فلا تملك من الفصاحة شيئا، هذا الموقف دعا أنصار اللفظ من المعتزلة وغيره، إلى محاججة عبد القاهر والرد عليه.

وقد كانت المعتزلة طرفا رئيسا في هذا الحوار، باعتبارها جماعة تدافع عن اللفظ ضد المعنى، لغايات عقائدية ومذهبية، مما جعل الحوار يستند إلى خلفيات مذهبية، فبرز الجانب الأشعري عند عبد القاهر، مما جعله حوارا بين أنصار الصياغة وأنصار اللفظ أو المعنى من جهة، وبين المعتزلة والأشاعرة من جهة أخرى.

وقد سعى هذا الفصل إلى بيان مواقف ودعاوى كل من عبد القاهر الجرجاني وخصومه، التي قام عليها الحجاج وبسطها وإيرادها، حتى يكون المتن الذي تضمن هذه الدعاوى معلوما حين تحليله ودراسته في الجانب النظري، مع الإشارة في خاتمة هذا الفصل إلى الخلفيات المذهبية والعقائدية التي استند إليها الطرفان.

1 . البلاغة نظم وصياغة وتركيب.

سعى الجرجاني في كتابه الدلائل إلى تقديم تصور جديد لمفهوم البلاغة، تصور يستوعب فيه آراء من تقدمه من البلاغيين، وقد أعاد صياغتها لتوافق رؤيته البلاغية، ولا شك أن هذه الرؤية قامت على نقد تصورات مختلفة، اتخذت من ثنائية اللفظ والمعنى أساسا لها.

شغلت ثنائية اللفظ والمعنى نقاد العرب القدامى زمنا طويلا، حتى نشأ عن ذلك صراع كبير بين من ينتصر للفظ وآخر للمعنى، وقد برز الجرجاني بموقف مزج فيه بين اللفظ والمعنى، وأزاح الحواجز بينهما ليتبع في ذلك تصورا سبقه إليه الجاحظ، يرى في البلاغة نظما وصياغة وتركيبا؛ حيث جمعت هذه الرؤية بين اللفظ والمعنى عن طريق ما يحدث بينهما من التحام في الصياغة والتصوير، وقد عد الجرجاني هذه الصياغة الأساس الذي يقع به التفاضل بين أصحاب الكلام، يقول الجرجاني في شأن التصوير والصياغة: " ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار "[1]

إن تبني عبد القاهر لهذا الموقف الذي يعد به من أنصار الصلة والالتحام بين اللفظ ومعناه وعدم إمكانية الفصل بينهما بفاصل، جعله يقيم في كتابه دلائل الإعجاز حوارا أشبه ما يكون بالمناظرة؛ حيث حاجج من أسرف في تقدير اللفظ أو المعنى حجاجا قويا فند فيه الحجج التي كانوا يستندون إليها، وقد استبد الجزء المخصص لمحاججة اللفظيين بالجزء الأكبر من مساحة الكتاب، إذ نجده يعلن النكير على هذه الجماعة في مواضع شتى من مؤلفه.

يقيم عبد القاهر حوارا مع أنصار اللفظ، كأبي هاشم الجبائي والقاضي عبد الجبار المعتزليين، ومعاصره ابن سنان الخفاجي وباقي اللفظيين، ولا نجد الجرجاني يشير إليهم صراحة في خطابه، لكن النصوص التي ضمنها خطابه الحجاجي تدل على آرائهم، فقد أشار الجرجاني مثلا في كتابه إلى نص من نصوص القاضي عبد الجبار في أكثر من موضع، يقول القاضي في هذا النص: "على أنا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر، التزايد عند الألفاظ التي يعبر بها عنها، على ما ذكرناه"[2].

إن أكثر ردود عبد القاهر في كتاب الدلائل هي ردود على مقالة المعتزلة وعلى عبد الجبار خاصة [3].

إن عبد القاهر في نظريته ليس من أنصار الألفاظ من حيث هي ألفاظ منطوقة ولا من أنصار المعنى، وإنما هو من أنصار الصياغة والالتحام، وبهذا يكون قد جمع بين اللفظ والمعنى وسوى بين خصائصهما وجعلهما شيئا واحدا يعتمد على الصياغة والتصوير.

2 . الفصاحة من صفات المعنى دون اللفظ.

عمد الجرجاني في خطابه الحجاجي النقدي إلى إبطال دعوى من دعاوى خصومه اللفظيين، التي تكاد تكون محور النقاش بين الطرفين؛ إذ يرى أنصار اللفظ من المعتزلة وغيرهم . حسب الجرجاني .، أن الفصاحة صفة للفظ من حيث هو لفظ، بدليل أن الفصاحة كانت من صفات اللفظ البتة، ولا تجد أحدا يقول: هذا معنى فصيح، وقد دعَّم أصحاب هذا الاتجاه موقفهم بأقوال القدماء من علمائهم، كالقاضي عبد الجبار المعتزلي، وقد نقل الجرجاني احتجاجهم هذا في كتابه حين قال: " فإن قيل: فماذا دعا القدماء إلى أن قسموا الفضيلة بين المعنى واللفظ فقالوا: "معنى لطيف ولفظ شريف "، وفخموا شأن اللفظ وعظموه حتى تبعهم في ذلك من بعدهم وحتى قال أهل النظر: "إن المعاني لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ " [4]، وقد علق الجرجاني على احتجاجهم بقوله: " فأطلقوا كما ترى كلاما يوهم كل من يسمعه أن المزية في حاق اللفظ "[5].

سعى الجرجاني إلى نقض هذه الآراء التي تعول في الحكم بالجودة الفنية على اللفظ في ذاته لا في معناه، وساق جملة من الحجج في شكل اعتراضات وردود، وقد عرض الجرجاني لقولهم بفصاحة اللفظ المفرد مفندا حجتهم هذه برده الفصاحة لمدلول اللفظ لا اللفظ نفسه، حيث إن اللفظ وصف بالفصاحة من حيث كونه دالا على معناه، وإذا كانت الفصاحة خاصة باللفظ من حيث الدلالة استحال أن يوصف بها المعنى، كما استحال أن يوصف المعنى بأنه دال أيضا[6].

ومن الأدلة التي دعم بها موقفه أن القول بفصاحة اللفظ في ذاته، يقضي بأن تكون هذه الفصاحة واجبة له في كل حال، وألا تتغير قيمة اللفظ حسب السياق الذي يرد فيه، وهذا قول فاسد حسب رأيه، إذ إنك تجد لفظة بعينها في تأليف على حال من الجودة والحسن، وتراها في موضع آخر قد نفرت منها الطباع ومجتها الأسماع، " ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينك تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"[7]، وقد استدعى جملة من الشواهد الشعرية محاولة منه لتأكيد حكمه ودعواه.

إن الكلمة حسب الجرجاني قبل أن تدخل في التأليف لا توصف بالفصاحة أبدا، وإنما توصف بها حين يأتلف معناها بمعاني كلمات أخرى في سياق ونظم محدد؛ فإفراد الكلمة وإخراجها من سياقها يفقدها مزيتها، وقد اعتمد الجرجاني في نقضه لدعواهم (فصاحة اللفظ المفرد) على استدلال عقلي ؛ حيث رأى أن القول بفصاحة اللفظ يقضي بأن يتساوى الناس في العلم بفصاحتها؛ لأن الإدراك الحسي لا يختلف من شخص لآخر، وإنما يقع الاختلاف في الإدراك العقلي، " لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة

في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع، أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة؛ لأنها لو كانت كذلك، لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحا، وإذا بطل أن تكون محسوسة، وجب الحكم ضرورة بأنها صفة معقولة، وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة، فإنا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس، إلا دلالته على معنى، وإذا كان كذلك، لزم منه العلم بأن وصفنا اللفظ بالفصاحة، وصف له من جهة معناه لا من جهة نفسه، وهذا ما لا يبقى لعاقل معه عذر في الشك، والله الموفق للصواب "[8].

إذا كانت فصاحة الألفاظ في ذاتها، هي الدعوى الأساس التي قام عليها حجاج أنصار اللفظ، فإن أطوار الحجاج قد ولد منها دعاوى أخرى، اضطر الجرجاني إلى ردها حتى يثبت آراءه في النظم والصياغة، دعاوى اعتمدها اللفظيون مستندين فيها إلى علماء البلاغة كالجاحظ وغيره، لمواجهة الجرجاني ومحاججته كما سيظهر فيما يأتي.

1.2 صفة الفصاحة للفظ وتلاؤم الحروف.

عند الاطلاع على هذا الفصل الذي خصصه الجرجاني للرد على من ادعى أن الفصاحة للفظ وتلاؤم الحروف، نلاحظ انطلاقا من الأمثلة التي ساقها ونسب بعضها إلى الجاحظ، أنه يقصد الرد على الجاحظ نفسه، بغية تقويض خطابه، فيرى أن أصحاب هذا المنزع يزعمون " أن الكلام على طبقات، فمنه المتناهي في الثقل والمفرط فيه، كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفروليس قرب قبر حرب قبر

ومن الكلام ما هو أخف كقول أبي تمام:

كريم متى أمدحه والورى جميعا، ومهما لمته لمته وحدي

ومن الكلام ما يكون فيه بعض الثقل، لكنه لا يصل حد التشهير بصاحبه ووسمه بالعيب "[9]، ويرى أصحاب هذا المنحى أن الكلام إذا خلا مما ذكر كان المقصود بالفصاحة.

هكذا نجد الجرجاني يسوق دعوى مناقضيه، وفي هذا التقديم يرى حمادي صمود: "أنه يتعمد الانطلاق من معطيات منقوصة أو خاطئة، ليوجه النقاش الوجهة التي تخدم غرضه وتدعم موقفه، ولعل أبرز نموذج لذلك، الكيفية التي قدم بها علاقة الفصاحة والبلاغة عند المتقدمين، فهم لم يقتصروا في معنى الفصاحة على ما ذكره الجرجاني، بل كانوا يمزجون بين مستويات متعددة..."[10].

بنى الجرجاني خطابه الحجاجي على نقض ما أورده سلفا، فرأى أن قصر صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك، يلزمنا أن نخرج الفصاحة من حيز البلاغة، بناء على تطابق المفهومين عنده، وإذا حصل الفصل: ف"إما أن نجعله {أي اللفظ} العمدة في المفاضلة بين العبارتين ولا نعرج على غيره، وإما أن نجعله أحد ما نفاضل به، ووجها من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام"[11].

رتب الجرجاني نتائج مباشرة على هذا الفصل بين المفهومين، فعد الأخذ بالأول أمرا شنيعا؛ لأنه يؤدي إلى أن لا يكون للمعاني التي ذكروها في حدود البلاغة، من وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وتصحيح الأقسام، وحسن الترتيب والنظام، والإبداع في طريقة التشبيه والتمثيل، والإجمال والتفصيل... مدخل في جمال الأسلوب وحسن الصياغة، أما الأخذ بالثاني؛ فهو خلاف لا ضرر فيه، فما هو إلا نخرج الفصاحة من حيز البلاغة والبيان، أو نجعلها اسما مشتركا، يقع تارة لما تقع له لفظة البلاغة.

هكذا يقدم الجرجاني حججه، ليدعم دعواه التي تقضي بعدم وجود فصاحة في الألفاظ أو في حروفها، وإنما الفصاحة راجعة إلى معاني هذه الألفاظ، وذلك في سياق الرد على الجاحظ وابن سنان وغيرهما.

2 . تأثير الأشعرية في موقف الجرجاني.

لقد وقف الجرجاني موقفا معارضا لكل ما يوحي بجعل القيمة الأدبية من نصيب اللفظ وحده، لذلك كانت ردوده في الدلائل، تتسم بالقوة في عرض الحجة وتفنيدها، متبعا في ذلك منهج المتكلمين في الاحتجاج، هذا المنهج الذي كان يقوم في أساسه "على قناعات دينية وحضارية، ملتبسة بعلوم ومعارف أصيلة، تقوم على سند مكين من اللغة والنحو "[12]، ليتسنى للجرجاني الدفاع عن مذهبه الأشعري، الذي كان هدفه الأول، إذ إن عبد القاهر في كتاباته البلاغية كان رجل دين قبل أن يكون بلاغيا، فما وضع الجرجاني نظريته في النظم إلا ليفهم الناس إعجاز القرآن فهما لا يتعارض مع عقيدتهم؛ حيث شهد التنظير لإعجاز القرآن نقاشا حادا بين المتكلمين في تحديدهم وتصورهم لماهية الكلام، فإذا كان حد الكلام عند المعتزلة، أنه " ما حصل فيه نظام مخصوص من هذه الحروف المعقولة، حصل في حرفين أو حروف " [13]، فإنه يتعارض مع منظور الأشعرية ورؤيتهم للكلام، فعقيدة الأشعرية في الكلام تنطلق من مسلمة مفادها أن: "الكلام معنى قائم بالنفس، يعبر عنه بهذه الأصوات المسموعة تارة، وبغيرها أخرى "[14] ؛ فقسموا الكلام إلى قسمين: كلام قائم في النفس، وكلام لفظي محدث، هذا المنهج في تفسير ماهية الكلام من قبل الأشاعرة، مكنهم من تجنب الوقوع في القول بخلق القرآن، كما وقع في ذلك المعتزلة، وذلك حين قصروا حقيقة الكلام على الألفاظ والحروف، ليخلص الأشاعرة من هذا كله إلى القول بأن كلام الله عز اسمه قديم قدم الله، أما الحروف المقطعة والأصوات المحدودة فمخلوقات مخترعات.

لقد مكنت هذه الرؤية الأشعرية الجرجاني من صوغ نظريته في النظم وتحديد منظوره لمفهوم البلاغة والفصاحة، وتحديده أيضا لمفهوم الكلام في الحقل البلاغ، حيث يرى أن " الكلام النفسي الذي يقوم على العلاقات بين معاني الكلمات، هو الكلام الحق، وليس الكلام اللفظي إلا ظلا يتبع هذا الكلام النفسي في نهجه ورسمه "[15] ؛ فترتيب الكلام في النفس يتحكم في ترتيب الكلام في النطق، فما النظم اللفظي المنطوق إلا صورة عاكسة للنظم المعنوي الحاصل في النفس.

وإذا كان نظم المعاني في النفس، هو أساس نظم الألفاظ على اللسان، وما دامت المعاني مستوعبة للألفاظ، فإن المزية أو القيمة الأدبية كانت من حاق المعنى، وليس المقصود بالمعنى هنا عند الجرجاني المعنى الغفل الخام، بل المقصود هو صورة المعنى التي هي وجه المفاضلة بين الكلام، وقد جعلت الصور اللفظية والألفاظ المنظومة دليلا على صورة المعنى ونظمه النفسي، الأمر الذي سوغ لعلماء البلاغة ـ حسب رأي الجرجاني ـ أن يطلقوا على صورة المعنى "اللفظ"، وهم إنما يعنون بذلك ما عناه الجاحظ حين قال " فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"[16].

بناء على ما سبق، نلاحظ أن الجرجاني في صوغه لنظرية النظم، كان ينطلق من تصورات عقائدية جعلته يعيد صياغة كثير من المفاهيم البلاغية من قبيل، (اللفظ، المعنى، صورة المعنى ...)، مما جعله يصطدم بآراء المعتزلة واللفظيين ممن عارضوا هذا الموقف.

ولعل نص ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة، يشير إلى ما تمت الإشارة إليه من تأثير الأشعرية في موقف الجرجاني، يقول ابن سنان:" أما من ذهب إلى أن الكلام معنى في النفس من المجبرة، فإن الذي حملهم على هذا المذهب الواضح الفساد، ظهور أدلة نظار المسلمين على حدوث هذا الكلام المعقول، وتقديم بعض حروفه على بعض، فلم يتمكنوا من الاعتراف بأنه من جنس الأصوات المتقطعة، مع القول بأن كلام الله عز اسمه قديم، فادعوا لذلك أن الكلام غير هذا الصوت المسموع، وأنه معنى قائم بالنفس، ليسوغ لهم قدمه على بعض الوجوه "[17].

الفصل الثاني. مقاربة بلاغية حجاجية للخطاب الحجاجي النقدي عند عبد القاهر الجرجاني.

تمهيد:

يروم هذا الفصل الكشف عن السمات الحجاجية التي استثمرها الجرجاني في بناء بلاغة خطابه النقدي، وحتى يكتسب التحليل البلاغي الحجاجي مشروعيته، فقد عمدت أولا إلى رصد السياق النصي الذي أنتج فيه الخطاب، إذ أن معرفة السياق العام الذي أنتج فيه الخطاب ونوع الخطاب يسهم في توجيه القراءة إلى مرماها الصحيح؛ ومعرفة هذا الإجراء يفتح "للمحلل البلاغي أفق توقع يقوم على مجموعة من القواعد، فإن وظيفة هذا الأفق تتمثل في إرشاد المحلل إلى سمات النص واستراتيجياته الخطابية " [18].

بالإضافة إلى تحديد نوع الخطاب، وقفت على الاستراتيجيات والتقنيات الحجاجية المستخدمة فيه، مع بيان طبيعتها والنوع الحجاجي المهيمن فيها، وبما أن النص يستمد مقوماته البلاغية من الإطار النوعي الذي ينتمي إليه، فإن نص عبد القاهر الجرجاني الذي سنتناوله يفترض فيه أنه نص تحكمه تقنيات حجاجية عقلية، وأخرى أسلوبية لغوية، نظرا لمنهج الجرجاني الذي يقوم على معرفة بالإمكانات الأسلوبية التي تتيحها اللغة، وتمرسه بمنهج المتكلمين في الاحتجاج الذي يطغى فيه الحجاج العقلي.

تميز خطاب عبد القاهر الجرجاني بتنوع الحجج والبراهين التي أسهمت في بناء بلاغة خطابه الحجاجي النقدي، تنوعا يصعب معه حصرها وتحليلها نظرا لطبيعة البحث، وبما أن أي خطاب لا يخلو من حجاج يهيمن عليه، فقد اقتصرت في هذا التحليل على بيان هذا الحجاج و طبيعته، مكتفيا في ذلك بذكر حجاجية التمثيل، وحجة السلطة والقياس والاستفهام والحوارية، مع الإشارة أثناء التحليل إلى أوجه أسلوبية و حجج ومواضع، التحمت مع الحجج الرئيسة وتضافرت معها لترفع من طاقتها الحجاجية، وذلك من أجل تدعيم موقف الجرجاني ضد خصومه والانتصار لدعواه.

1. النص والسياق.

يمكن اعتبار خطاب عبد القاهر الجرجاني النقدي خطابا بلاغيا حجاجيا، رام من خلاله إقناع المتلقي والتأثير فيه، وبما أن فعل الإقناع لا بد له أن يستند إلى متكلم ومتلق ويتغيى توصيل رسالة، فإن المتكلم / المخاطِب في هذا السياق هو عبد القاهر الجرجاني باعتباره بلاغيا وأشعريا يسعى إلى إقناع المتلقي / المخاطَب، ويحمله على الإقرار والتسليم بدعواه، التي تقضي بفصاحة معاني النظم، وأن الألفاظ في ذاتها لا تملك شيئا من الفصاحة.

أما المخاطبون فهم أنصار اللفظ كما عدهم الجرجاني من المعتزلة وغيرهم، وإن كان الجرجاني قد أعرض في كتابه كله عن ذكر المعتزلة، إلا أن استناده إلى نصوص بعض علمائهم، كالجاحظ و القاضي عبد الجبار الأسد آبادي، الذي خصص الجزء السادس عشر من كتابه المغني، لتناول قضايا إعجاز القرآن، ومناقشتها والرد عليها، أبان عن مخاطبه المقصود، و لقد اتخذ الجرجاني موقفا متباينا من علماء المعتزلة " يتراوح بين موقف المشاكلة والموافقة، من ذلك إشاراته التمجيدية إلى الجاحظ أحيانا، والمخالفة أحيانا أخرى {...} ومن ذلك موقفه مع عبد الجبار، الذي لم يكن متبنيا معه الموقف نفسه الذي تبناه مع الجاحظ "[19].

يتوخى عبد القاهر الجرجاني من خلال خطابه النقدي الحجاجي، الرد على أنصار اللفظ ودحض حججهم وإثبات آرائه في الفصاحة والبلاغة؛ فبينما سعى هو إلى إثبات أن صفات الفصاحة والبلاغة، تعود إلى معاني الكلمات المتعلقة ببعضها البعض، مشكلة ما سماه بالنظم، فإن أنصار اللفظ يعدون تلك الصفات خاصة باللفظ وحده، وبناء عليه؛ فإن المقام التواصلي يقوم على

دحض حجج مخالفيه وتفنيدها، متوسلا في ذلك بتقنيات حجاجية، مزج فيها بين ما هو عقلي (لوجوسي) وبين ما هو لغوي أسلوبي.

وبما أن العصر الذي أنتج فيه هذا النص، كان عصر جدال ومناظرة؛ فإن هذه الملامح أثرت في خطاب عبد القاهر؛ حيث امتاز خطابه بالطابع السجالي الحواري، باعتباره محاورا ومتحديا ومطالبا بالحجة، وانطلاقا من هذا التصور، يمكن تصنيفه ضمن النصوص السجالية التناظرية التي تقوم على عرض الحجة وتفنيدها.

لقد توخى الجرجاني في خطابه الحجاجي النقدي أسلوب المناظرة والمحاجة، فاتخذ في سبيل ذلك عرض الرأي وبسط حجة الخصم وتفنيدها، وقد فعل بشكل ملحوظ في خطابه دور المتلقي، عن طريق افتراض أسئلة والإجابة عنها، في محاورة افتراضية ضمنية، مكنته من الانتقال بسهولة من حجة إلى أخرى، مختارا في ذلك آليات مناسبة للحجاج، بداية من اللغة التي سخرها في الكتابة وأسلوب الطرح المعرفي لأفكاره، مما جعل خطابه خطابا بلاغيا حجاجيا بامتياز.

2. الاستراتيجيات والتقنيات الحجاجية.

أ . التمثيل.

التمثيل والسخرية من الخصم.

"وما مثل من يزعم أن (الفصاحة) صفة للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان، ثم يزعم أنه يدعيها لمجموع حروفها دون آحادها، إلا مثل من يزعم أن هاهنا غزلا إذا نسج منه ثوب كان أحمر، وإذا فرق ونظر إليه خيطا خيطا، لم تكن فيه حمرة أصلا"[20].

لجأ الجرجاني إلى التمثيل، لإقامة الحجة على بطلان دعوى أن الفصاحة صفة للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان، حيث أقام تمثيلا بين من يدعي هذا القول، وبين ذلك الذي يزعم أن هذا الغزل إن نسجنا منه ثوبا كان أحمر اللون، لكن إن فرقناه خيطا خيطا لم تكن ثمة حمرة أبدا ؛ فالحامل في هذا الملفوظ معلوم مشترك بين المتكلم والمخاطب، رام من خلاله الجرجاني تقييم الموضوع (فصاحة اللفظ من حيث هو لفظ)، إذ أن الانتقال من معنى مجرد (فصاحة اللفظ) إلى معنى حسي (حمرة الغزل)، لم يكن ذا غاية جمالية فقط، بل اضطلع هنا بوظيفة إقناعية، كان الهدف من ورائها السخرية من الخصم، ووسمه بعدم الفهم والتمييز، وفي الوقت نفسه إثارة الشك في ذهنه حتى يعيد النظر في موقفه و يأخذ برأي عبد القاهر، وتحمل لفظة (الزعم) في " وما مثل من يزعم.. ثم يزعم..إلا مثل من يزعم " دلالة واضحة، حيث إن هذه الألفاظ تستعمل في المناظرة حين يريد المناظر أن يقلل من قيمة قول أو شخص أو غير ذلك، فلا شك أن القيمة السلبية التي تضمنها الحامل من حيث إن هذا القول لا يمكن أن يدعيه عاقل، انتقل إلى الموضوع (الدعوى)، ليتحقق بهذا الانتقال هدف الجرجاني من السخرية بخصمه والتقليل منه.

لم يقف الجرجاني عند هذا الحد، بل سخر من خصمه في أكثر من موضع، بل لا تكاد تجد نقضا له لحجة خصمه إلا وقد ختمه بسخرية، من ذلك، ما أتى به في سياق الرد على حجة خصمه المتمثلة في " أن العقلاء قد اتفقوا على أنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين، ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح، مما يدل على أن المزية من نصيب اللفظ لا المعنى، لأن المعنى في اللفظين واحد "[21].

حيث رأى أنه يكون للمعنى في إحدى العبارتين حسن ومزية، لا يكونان له في الأخرى، إذ أن طريقة تشكيله وصياغته تختلف من عبارة لأخرى، ومن رأى أن هذا لا يكون " وأداه قول يقوله إلى مثل هذا كان الكلام معه محالا، وكنت إذا كلفته أن يعرف كمن يكلف أن يميز بحور الشعر بعضها من بعض، فيعرف المديد من الطويل، والبسيط من السريع، من ليس له ذوق يقيم به الشعر من أصله "[22].

قام الجرجاني بإحداث مشابهة، بين من لا يذوق الكلام ولا يهتدي إلى تمييز جيده من رديئه، وبين من لا ذوق له ولا معرفة بالشعر، يطلب منه أن يميز بحوره، طويلها من مديدها وبسيطها من سريعها؛ فليست وظيفة التمثيل هنا إثبات الحامل وإيقاع التصديق به، بقدر ما تكمن وظيفته في السخرية من خصمه والتقليل من قدرة فهمه، وكأنه يقول: إن هذا الأمر يفهمه من له ذوق بأساليب البلاغة والفصاحة، يستطيع تحديد مكامن الحسن والجمال، أما من لا يفهمه كأمثالك "كان الكلام معه محالا "[23].

التمثيل وصياغة المعاني.

لم يكتف الجرجاني في رد دعوى خصمه السابقة بالسخرية منه عن طريق التمثيلات السابقة، ولكنه ساق تمثيلا آخر وظيفته الأساس معرفية، قبل أن يحولها بقدرته اللغوية إلى وظيفة حجاجية، حيث سيعمد إلى إقامة تمثيل بين علاقتين، علاقة البليغ بالمعاني وعلاقة أشكال الحلي بالصائغ أو الصانع، يقول عبد القاهر: " فإن هاهنا أصلا من عرفه عرف سقوط هذا الاعتراض، وهو أن يعلم أن سبيل المعاني سبيل أشكال الحلي، كالخاتم والشنف والسوار، فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجا، لم يعمل صانعه فيه شيئا أكثر من أن أتى بما يقع عليه اسم الخاتم إن كان خاتما، والشنف إن كان شنفا، وأن يكون مصنوعا بديعا قد أغرب صانعه فيه. كذلك سبيل المعاني، أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم، ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني، فيصنع فيه ما يصنع الصنع الحاذق، حتى يغرب في الصنعة، ويدق في العمل، ويبدع في الصياغة "[24].

إن المعنى قد يكون متداولا بين الناس معروفا، لكن الخبير بشأن البلاغة حين يقدم عليه، يصوغ منه صورا بلاغية رائعة، بفضل خبرته وحنكته، كذلك أشكال الحلي من خاتم وسوار، قد لا يأتي الصائغ إلا بما يحمل اسم الخاتم وهيئته، ولا يبدع في صياغته، بيد أن الصائغ المبدع يعمد إلى تلك الأشكال العادية المبتذلة، ليغرب في صنعته ويبدع في الصياغة، حتى ترى ذلك الخاتم العادي في هيئة أبهى مما كان عليه من قبل.

لا شك أن الحامل هنا (علاقة أشكال الحلي بالصائغ)، صورة حسية مشتركة بين الخطيب والمخاطَب والناس أجمعين، وأن الموضوع (علاقة المعاني بالبليغ)، صورة ذهنية مجردة ومبهمة، وبهذا الاستدلال الحسي الذي يسمح به التمثيل، قربت الصورة المجردة إلى ذهن المتلقي، ليضطلع التمثيل هنا بوظيفة معرفية، لجأ إليها المتكلم لبناء تصوره للمعاني، بيد أن هذه الوظيفة وإن احتفظت بدلالتها، نجدها قد دلت دلالة أخرى وظيفتها إقناعية، سيما وأن الجرجاني مهد لهذا التمثيل بتعبير غرضه الأساس الحجاج، حيث يقول " فإن ها هنا أصلا من عرفه عرف سقوط هذا الاعتراض، وهو أن يعلم..."[25].

التمثيل والانتصار للفظ.

ما دام أن الجرجاني من أنصار الصياغة والتصوير قد حاجج من انتصر للفظ وجعله مدار القيمة الأدبية ؛ فإن أنصار المعنى لم يسلموا من حجاج عبد القاهر، وذلك ما نجده في تمثيل ساقه للرد على من يقدم الشعر أو الكلام بمعناه، ويقل الاحتفال باللفظ،

حيث يقول: " ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه، وكما لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود، أو فصه أنفس، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه، أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام، وهذا قاطع فاعرفه " [26].

لا يمكن تقديم الكلام بمعناه فقط حسب الجرجاني؛ لأنه لفظ وصياغة أيضا، فالمعنى سبيله سبيل الذهب والفضة، كلاهما مادة خام للتصوير والصياغة، فكما أنك إذا أردت النظر في جودة الخاتم ورداءته من حيث الصياغة، لم تنظر إلى المادة الحاملة لها فقط، ذهبا كان أو فضة وتنسى عمل الصائغ وإبداعه في اختيار النقوش وغير ذلك، فكذلك الأمر بالنسبة للمعاني، لا يمكنك تقديم كلام لمجرد معناه. وكذلك تفضيل خاتم على خاتم من حيث جودة مادته أو نقشه ليس تفضيلا له من حيث هو خاتم باعتباره كلا، فكذلك لا يمكن تقديم بيت شعر على آخر أو كلام باعتبار المعنى فقط.

إن التعبير عن مجال المعاني، بألفاظ مجال الذهب والفضة الذي ينتمي إلى عالم محسوس يدرك بالحواس، أمر بالغ الأهمية في تقريب الصورة وإثباتها لدى المتلقي، إذ أن بلاغة التمثيل تكمن في " تأكيد المعنى وتشديده وقوة إثباته بإثبات دليل أو شاهد يقطع بوجودها؛ فالتقديم الحسي للمعنى في التمثيل، يثبت المعنى ويستدل عليه بتقديم شاهد ملموس، هو في منزلة شاهد العيان، الذي لا يمكن التشكيك في شهادته "[27].

وبما أن الحامل هنا ذا طابع حسي (صياغة الخاتم من الذهب والفضة) فقد أسهم في تقريب المعنى وكشفه وإيضاحه؛ حيث **إن** أهمية التمثيل تكمن في تباعد مجالات الطرفين، فقد مكن هذا الاستبدال والاستدلال الحسي من إثبات وإيقاع التصديق بدعوى (أن الكلام لا يقدم بمعناه فقط).

فبموجب هذا التماثل، تم إسقاط ما هو متفق عليه في المتخيل الثقافي المشترك، على ما هو موضع خلاف، إذ لا بد للحجة كما هو معلوم أن تستند إلى قيم مشتركة بين الخطيب والمخاطب، تمهد لأرضية مشتركة للحوار والنقاش.

التمثيل والنظم.

قام جزء كبير من خطاب الجرجاني على نقض آراء القاضي عبد الجبار، ومعلوم أن فكرة النظم لم ينفرد بها عبد القاهر وحده، فقد كانت هذه الفكرة تتردد في أوساط البلاغيين والمتكلمين من عصر الجاحظ إلى عصر عبد القاهر، والقاضي عبد الجبار ممن عرفت هذه الفكرة عنده نضوجا واضحا، إلا أن كلامه عنها كان مجملا عاما، لم يعرض فيه إلى خصائص النظم الذي سماه **بالضم** ومكان المزية فيه، حيث يقول: "إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"[28].

عمد الجرجاني إلى هذه القولة ليبين ضعفها وعدم تماسكها، وساق من أجل هذا الغرض تمثيلا حجاجيا يبخس فيه من عمل القاضي عبد الجبار ويسمه بالإشارة والإيماء، دون بيان لكيفية بروز الفصاحة في ذلك الضم، حيث يقول: "ولو كان القائل لك في تفسير الفصاحة "إنها خصوصية في الكلم، وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر بها الفائدة" أو ما أشبه ذلك من القول المجمل، كافيا في معرفتها ومغنيا في العلم بها، لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها. فكان يكفي في معرفة نسج

الديباج الكثير التصاوير أن تعلم أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص، وضم لطاقات الإبرسيم بعضها إلى بعض على طرق شتى، وذلك مالا يقوله عاقل "[29].

لا يكفي في معرفة صناعة الديباج، أن تعلم أنه ترتيب وضم دون معرفة لكيفية هذا الترتيب وضمه، كما هو الحال في النظم، إذ لا يكفي أن تعرف أنه خصوصية فيه وضم بعضه إلى بعض على طريقة مخصوصة، دون معرفة هذه الطريقة وتلك الخصوصية.

لقد منح الحامل (لا يكفي في معرفة الديباج أنه ضم) الموضوع (لا يكفي في معرفة الفصاحة أنها ضم)، شكلا حسيا وحضورا في الوعي، زاد من تأكيد معناه في ذهن المتلقي، وغاية التمثيل هنا بيان ضعف منهج خصمه، وأنه منهج يكتفي بالإشارة والتلويح، دون البيان والتصريح.

كما لا يخفى أيضا أن هذا التمثيل يتضمن في طياته سخرية من خصمه، وللسخرية دور في إثارة الشك في ذهن الخصم وتشويشه مما يدفعه إلى مراجعة موقفه وتغييره، وهذا ما يسعى إليه عبد القاهر من خلال هذا التمثيل.

تبقى آراء القاضي عبد الجبار ذات سلطة مهمة في مسألة الفصاحة، لذلك سنجد نصا من نصوصه يتردد في مبحث الاحتجاج بالسلطة على يد أنصار اللفظ ليدعموا به موقفهم ضد عبد القاهر الجرجاني.

ب . الاحتجاج بالسلطة واستدعاء النصوص.

السلطة وفصاحة النظم.

سلطة الإجماع أو الرأي العام: يقول عبد القاهر:" وهل تجد أحدا يقول <هذه اللفظة الفصيحة >، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم {...}، وهل قالوا: <لفظة متمكنة ومقبولة>، وفي خلافه <قلقة ونابية ومستكرهة >، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق." [30].

استند الجرجاني في دعم دعواه، التي تقضي بأنه لا فصاحة للفظ مفرد خارج من نظمه ومعزول عن سياقه، إلى إجماع يمثل حجة سلطة؛ إذ أن اتفاق جماعة من الناس على رأي ما، يتيح لهذا الرأي قوة التأثير في الخصوم، وقد استهل الجرجاني هذه الحجة باستفهام خرج به عن معناه الأصلي إلى النفي، ليصل إلى نتيجة ضمنية منه، هي: "أن الكل مجمع على اعتبار النظم معيارا للحكم على فصاحة اللفظ "، وزاد من تأكيد هذه النتيجة بضمير جماعة آخر، في قوله: "وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة..".

وبما أن حجة السلطة " لا يمكنها أن تستقل بملفوظ حجاجي؛ لأنها لا تملك أن تحمل لوحدها عبء الحجاج "[31]، نلاحظ أنها التبست بوجه أسلوبي (الاستفهام)، له دوره في إثارة الشك في ذهن المخاطب، لتتضافر الأوجه الأسلوبية مع هذا النوع من الحجج، وتخدم غرضا واحدا هو: التأثير في الخصم وحمله على تغيير رأيه.

سلطة المرجعية الدينية والشاهد القرآني: وذلك في قوله: " وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين) سورة هود 44، فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي تسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض...."[32].

لقد حظيت هذه الآية عند علماء البلاغة والإعجاز باهتمام وعناية كبيرين[33]، وذلك لتضمنها قدرا عاليا من الفصاحة، عمل الجرجاني فيما بعد على بيانها على وجه من الإيجاز والإجمال، وقد مكنته هذه الحجة المتمثلة في شاهد قرآني، من تقوية حجة سلطة الإجماع السابقة، ودعم دعواه في الفصاحة، ولكي يبين الجرجاني قدر هذه الآية، عمل على بيان فضلها للمخاطب، " فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي تسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع،،، "[34]، إن هذا البيان الموجز، تضمن ملفوظات حجاجية قوية، وذلك حين ذكر صفتين للمزية، لجأ الجرجاني في ذكرهما كعادته، إلى استثمار قوته اللغوية، لما ذكرهما على شكل ملفوظين سجعيين (المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة)، فلو خلا الكلام منهما لقلت الطاقة الحجاجية لهذ الملفوظ، و حتى يخلق لدى المتلقي إيقاعا يثير سمعه و وجدانه، ويهيئه لاستقبال هذه الحجة القرآنية .

ولا شك أن الشاهد القرآني باعتباره سلطة غير شخصية، يشكل محط إجماع عام لدى كل المسلمين، وقوته التأثيرية تكاد تفوق قوة كل الحجج بالنسبة لمخاطب "مسلم"، يفترض فيه أنه عالم بقوة فصاحة القرآن ؛ فالجرجاني لجأ إلى هذه الحجة بصفتها سلطة، يتفق فيها مع المخاطب ؛ لأنها تمثل جزءا من ذلك المشترك الثقافي، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد مشبال: "ينبغي للخطيب أن يستدعي سلطة يوافق عليها مخاطبه، بل الأصح أن نقول: إن الخطيب يعول كل التعويل على مخاطبيه في استدعاء سلطة من السلط، من ذلك أن تشكل جزءا من ثقافة هذا المخاطب، حتى لا يضطر الخطيب إلى تبيين مقومات السلطة التي يحيل إليها." [35]

لذلك نلاحظ أن الجرجاني أكثر من ذكر الشاهد القرآني في غير ما موضع، وذلك حين وجد فيه مدونة صالحة لتطبيق نظريته في النظم، إذ نجده يقول محاججا أنصار اللفظ في موضع آخر: " أفلا ترى أنه لا يقع في نفس من يعقل أدنى شيء، إذا هو نظر إلى قوله عز وجل: {يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو، فاحذرهم} سورة المنافقون 4، وإلى إكبار الناس شأن هذه الآية في الفصاحة، أن يضع يده على كلمة كلمة،فيقول إنها فصيحة ؟"[36]

لا يكتفي الجرجاني بذكر الشاهد القرآني فقط، بل لا بد أن يقرنه بوجه أسلوبي كالاستفهام في هذا الموضع وغيره، {أفلا ترى...} وأن يقرنه بتمهيد يذكر فيه بعض أوجه قوة هذا الشاهد، كقوله في هذا الشاهد {وإلى إكبار الناس شأن هذه الآية في الفصاحة}، لقد حاجج الجرجاني بالإضافة إلى حجة السلطة والاستفهام، بحجة أخرى تمثلت في موضع الكم، فذكره "الناس" ملفوظ حجاجي، يحيل إلى كثرة من شهد لهذه الآية بالفصاحة، ولم يدع أحد أن {يضع يده على كلمة كلمة منها، فيقول إنها فصيحة}[37].

احتجاج أنصار اللفظ بالسلطة.

لم يخل الخطاب الحجاجي لأنصار اللفظ من احتجاج بالسلطة كذلك، فقد عمدوا بدورهم إلى استدعاء أقوال لأشخاص يحظون عندهم بسلطة معرفية ومكانة عالية، وقد كان في استدعائهم لقول اتفق عليه البلاغيون "العقلاء" حجة قوية، جعلت الجرجاني يستدعي نصوصا عديدة لرد هذه الحجة، وبيان مكامن الخلل فيها.

يقول أنصار اللفظ: " إن العقلاء قد اتفقوا على أنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين، ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح، وذلك قالوا: يقتضي أن يكون للفظ نصيب في المزية؛ لأنها لو كانت مقصورة على المعنى لكان محالا أن يجعل لأحد اللفظين فضل على الآخر مع أن المعبر عنه واحد "[38].

لقد حمل لفظ "العقلاء" قيمة أخلاقية استند إليها أنصار اللفظ، حيث يرون أن ما من عاقل يمكن أن ينكر وجود لفظين أحدهما أفصح من الآخر، مع أنهما يدلان على معنى واحد، مما يظهر أن للفظ مزية لا تكون في المعنى.

هذه الحجة تكاد لا ترد لقوتها في نظر اللفظيين، يقول الجرجاني " وهم إذا انتهوا إلى هذا الموضع، ظنوا أنهم قد أتوا بما لا يجوز أن يسمع عليهم معه كلام، وأنه نقض ليس بعده إبرام، وربما أخرجهم الإعجاب به إلى الضحك والتعجب، ممن يرى أن إلى الكلام عليه سبيلا، وأنه يستطيع أن يقيم على بطلان ما قالوه دليلا "[39].

لقد أعاد الجرجاني تأطير هذه الحجة، وذلك حين عمد إليها وأعاد توجيهها لخدمة دعواه، وجعلها نتيجة للتمثيل الذي ساقه لبيان أن سبيل المعاني سبيل أشكال الحلي، في كون كل منهما مادة للتصوير، إذ قد يكون المعنى واحدا لكنه يختلف من بليغ إلى آخر، فقال: " وإذا قد عرفت ذلك فإن العقلاء إلى هذا قصدوا حين قالوا: إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين، ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح، كأنهم قالوا: إنه يصح أن تكون هاهنا عبارتان، أصل المعنى فيهما واحد، ثم يكون لإحداهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه، وإحداث خصوصية فيه، تأثير لا يكون للأخرى " [40].

فلنقض هذه الحجة أعاد قراءتها بما يناسب منظوره، وحتى تكون سلطة داعمة له لا عليه، بالإضافة إلى استدعاء نصوص وشواهد شعرية تدعمها كما سيأتي "ولنقض حجة سلطة ما، نلجأ إلى حجة سلطة أخرى مغايرة، كما يمكننا أيضا الكشف عن عيوبها ووضع اليد على تناقضاتها أو أخطائها السابقة "[41].

بما أن القاضي عبد الجبار من أبرز علماء المعتزلة الذين ردوا الفصاحة إلى الألفاظ و إن كان قد قال بالنظم، فإن أنصار اللفظ لم يفتهم استدعاء نص من نصوصه، باعتباره سلطة تدعم موقفهم ضد عبد القاهر في مسألة فصاحة الألفاظ، مع التحام هذه السلطة بأسلوب الاستفهام الإنكاري الذي زاد من قوتها الحجاجية، حين قالوا: "فماذا دعا القدماء إلى أن قسموا الفضيلة بين المعنى و اللفظ، فقالوا: <معنى لطيف، ولفظ شريف>، وفخموا شأن اللفظ وعظموه حتى تبعهم في ذلك من بعدهم، وحتى قال **أهل النظر**: <إن المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ> ؟ "[42]

يرد عبد القاهر على هذه الحجة بإعادة تأطيرها بما يناسب غرضه، حيث رأى أن المعاني لما كانت تتبين بالألفاظ، وكانت الألفاظ علامات دالة على المعاني، استعاروا صفات المعاني ونسبوها إلى الألفاظ، كقولهم: " <لفظ متمكن> يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه، كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه، <ولفظ قلق ناب> يريدون أنه من أجل أن معناه غير موافق لما يليه "[43]، لم يستدع الجرجاني سلطة لتفنيد حجتهم، لكنه اكتفى ببيان تناقض مضمونها مع ما يذهبون إليه، وفي ذلك توبيخ لهم وسخرية منهم لعدم فهمهم لما يستدلون به عليه.

استدعاء النصوص والشواهد الشعرية

قام الجرجاني باستدعاء نصوص قرآنية وأمثال وشواهد شعرية تبين مدى قدرة التصوير على أخذ المعنى نفسه الذي يتداول بين الناس، وتحويله إلى صورة بلاغية ذات قيمة جمالية، ولا شك أن الشاهد الشعري يوظف باعتباره حجة مثبتة للدعوى، يلجأ إليه المحاجج لدعم فكرته وتقويض حجة خصمه، كما يجعل القول "مسنودا إلى خلفيات معرفية ووجدانية "[44].

ويمكن بيان هذه المقابلة في تلك النصوص بين المعنى المتداول والمعنى البلاغي كالآتي:

المعنى المتداول	المعنى البلاغي
1. الطبع لا يتغير.	1. وتأبى الطباع على الناقل.
2. غير بديع في قدرة الله تعالى أن يجمع فضائل الخلق كلهم في رجل واحد.	2. وليس الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد.
3. أنا مضياف.	3. ولا أبتاع إلا قريبة الأجل.
4. خليته وما يريد، وتركته يفعل ما يشاء.	4. ألقيت حبله على غاربه.
5. اشتدت محبتهم للعجل وغلبت على قلوبهم.	5. وأشربوا في قلوبهم العجل.
6. شاب رأسي كله.	6. واشتعل الرأس شيبا.
7. فما ربحوا في تجارتهم.	7. فما ربحت تجارتهم.
8. لما كان الإنسان إذا هم بقتل آخر لشيء غاظه منه، فذكر أنه إن قتله قتل ارتدع، صار المهموم بقتله كأنه قد استفاد حياة فيما يستقبل بالقصاص.	8. ولكم في القصاص حياة.

إن هذا الحشد للنصوص القرآنية والشعرية وغيرها، ترفع القول من مستوى الادعاء الخاص إلى مستوى المعتقد والمشترك، ولا يخفى أن الجمعي أكثر مصداقية وأقرب للإقناع، لذلك يسعى الخطيب دائما إلى جلب حجج تستند إلى قيم مشتركة بينه وبين المخاطب.

الجاحظ والتصوير.

رغم أن الجاحظ معتزلي، وله آراء متعددة في الفصاحة والبلاغة، إلا أن الجرجاني جعل من حظوته عند علماء البلاغة سلطة يرد بها على أنصار المعنى، ممن أبخسوا اللفظ حقه وجعلوا لا ينتصرون لكلام على آخر إلا إذا حسن معناه، يقول الجرجاني: "و إذا نظرت في كتب الجاحظ، وجدته يبلغ في ذلك كل مبلغ، ويتشدد غاية التشدد، وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركا، وسوى فيه بين الخاصة والعامة، فقال: {..} والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير "[45].

ينتصر الجرجاني لدعواه المتمثلة في أن البلاغة نظم وصياغة وتصوير، بسلطة الجاحظ باعتبارها سلطة تحظى بنفوذ ومصداقية لدى المخاطبين، حيث عمد الجرجاني إلى نقل " القيمة المتفق عليها من المصدر إلى أقواله" [46]، رغبة منه في إقناع مخاطبيه والتأثير فيهم، وحملهم على أن يأخذوا برأيه ودعواه.

تبقى السلطة حجة ناجعة في مجال الرأي المحتمل، وبخاصة إذا تضافرت مع حجج أخرى أو أساليب لغوية تدعمها، وبما أن خطاب الجرجاني تميز بتنوع الحجج المستخدمة، فإنه لم يكتف بالسلطة، وإنما عمد إلى استدلالات منطقية من قبيل القياس بغية تنويع الحجج والوصول إلى غرضه المتمثل في الإقناع.

ج . القياس.

لقد حاجج الجرجاني خصومه في خطابه الحجاجي بآليات استدلالية من قبيل القياس، حيث لجأ إلى القياس الشرطي في أكثر من موضع، لإثبات دعواه وحمل معترضيه على تغيير مواقفهم من دعواه، ويتضح ذلك في قوله: "ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة: "إنها خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها الفائدة "، أو

ما أشبه ذلك من القول المجمل، كافيا في معرفتها، ومغنيا في العلم بها، لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها. فكان يكفي في معرفة نسج الديباج الكثير التصاوير، أن تعلم أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص، وضم لطاقات الإبرسيم بعضها إلى بعض على طرق شتى ن وذلك ما لا يقوله عاقل "[47].

نلاحظ أن الجرجاني استخدم أسلوبا استدلاليا زاد من قوة التمثيل الحجاجية، وقد صاغه على شكل قياس استثنائي متصل، حذف منه المقدمة الصغرى والنتيجة، بيد أن هذا الحذف معلوم مطوي في الكلام يدل عليه سياق الحال، ولا يقلل هذا الحذف من طاقة القياس الحجاجية، بل يزيد منه لأنه يسمح للمتلقي أن يشارك في إتمام صياغته، مما يثير تفكيره ويحمله على استخرج النتيجة بنفسه، وبالتالي يكون وقعها أقوى في النفس مما لو صرح بها في الخطاب، ويمكن إعادة صياغة هذا القياس كالآتي:

مقدمة كبرى: لو كان الضم كافيا في معرفة الفصاحة لكفى مثله في سائر الصناعات.

مقدمة صغرى: لكنه لم يكف في معرفتها.

نتيجة: إذن، لا يكفي في معرفة الفصاحة وتفسيرها أن تعلم أنها ضم فقط.

يستدل الجرجاني في هذا النص على أن الفصاحة لا يكفي في معرفتها أنها ضم الكلم على طريقة مخصوصة فقط، ولو كان ذاك يكفي لسهل علينا معرفة جميع الصناعات، فعقد مقارنة بين نظم الكلم ونسج الديباج، ليفند بذلك مقولة القاضي عبد الجبار الذي ذهب إلى أن الفصاحة تظهر في نظم الكلم، وضم بعضه إلى بعض على طريقة مخصوصة دون بيان منه لكيفية هذا الضم.

وجد الجرجاني في القياس الاستثنائي تقنية صالحة لمقارعة خصومه، حيث لم يكتف بالنوع الأول منه (القياس الاستثنائي المتصل)، بل حاجج بالنوع الثاني الذي هو القياس الاسثنائي المنفصل، هذا التنويع في طرق الاستدلال أضفى على حجاجه قوة وتماسكا، تدفع خصومه إلى الإقرار والتصديق. يقول الجرجاني: " فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف، استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا "[48].

عمد الجرجاني إلى الاستدلال على صحة قضيته (الفصاحة تكون للنظم لا للفظ)، باستخدامه لقياس استثنائي منفصل، أبان فيه عن فساد موقفهم نظرا للنتيجة التي يؤدي إليها، ويمكن تأويل هذا القياس كما يلي:

مقدمة كبرى: الكلمة إما أن تحسن أبدا أولا تحسن أبدا.

مقدمة صغرى: لكنها لم تحسن أبدا.

نتيجة: إذن، فهي غير فصيحة في ذاتها، ومنه فإن الفصاحة من صفات النظم لا اللفظ.

إن الكلمة قد تكون فصيحة في نظم محدد وغير فصيحة في نظم آخر، فدل ذلك على أن الفصاحة غير ملازمة لها البتة، ساق الجرجاني هذا القياس عقب سوقه لموضع الكيف؛ حيث قال: "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"[49]، ليلتحم موضع الكيف بقياس مضمر، حذفت منه النتيجة، وذلك لإلزام المتلقي بملء هذا الفراغ الناقص، استدراجا له حتى يقيم الحجة على نفسه.

نورد مثالا آخر على استدلال الجرجاني بالقياس، نلاحظ فيه أنه ركب قياسا على قياس، حيث جعل من نتيجة القياس الأول مقدمة كبرى انطلق منها في صياغة قياس آخر، يثبت فيه أن الفصاحة صفة للفظ من جهة معناه لا من جهة نفسه، يقول: " لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع، أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة ؛ لأنها لو كانت كذلك، لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحا، وإذا بطل أن تكون محسوسة، وجب الحكم ضرورة بأنها صفة معقولة، وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة، فإنا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس، إلا دلالته على معنى."[50]

يرى الجرجاني أن صفة الفصاحة تدرك بالعقل لا بالحس، إذ لو أدركت بالحس لاستوى جميع السامعين في معرفة الفصيح، وهذا محال، ويمكن بيان ما مر كالآتي:

مقدمة كبرى: لو كانت صفة الفصاحة محسوسة لاستوى السامعون في معرفة الفصيح.

مقدمة صغرى: لكن السامعين لا يستوون في ذلك.

نتيجة: إذن، الفصاحة لا تدرك بالحس وإنما تدرك بالعقل.

لم يقف الجرجاني عند هذا الحد، بل جعل من نتيجة القياس السابق مقدمة ينطلق منها في صياغة قياس حملي، يثبت فيه أن الفصاحة ما دامت تدرك بالعقل، وكان المعنى معقولا، لا محسوسا، دل ذلك على أن الفصاحة صفة للمعنى لا للفظ من حيث هو صوت مسموع ونطق لسان:

مقدمة كبرى: الفصاحة صفة تدرك بالعقل.

مقدمة صغرى: المعنى يدرك بالعقل.

نتيجة: الفصاحة صفة للمعنى.

ينتهي الجرجاني من هذا الحجاج إلى نتيجة مفادها: أن الفصاحة صفة للمعنى، ويعتبر ذلك قولا " لا يبقى لعاقل معه عذر في الشك "[51]. يثبت هذا الاستدلال أن الفصاحة والمعنى كلاهما يدرك بالعقل، ويقتضي التسليم بهاتين المقدمتين، الانتهاء إلى نتيجة ملزمة للخصم، هي أن الفصاحة صفة للمعنى.

إن تمرس عبد القاهر بمنهج المتكلمين في الاحتجاج جعله يمزج في خطابه بين حجج عقلية منطقية، وبين أساليب لغوية خرج بها عن معانيها الأصلية إلى معان وظيفتها الأساس، التأثير في المتلقي وحمله على الاقتناع، من ذلك استخدامه لأسلوب الاستفهام كما سيأتي بيانه.

د . الاستفهام.

الاستفهام وفصاحة اللفظ المفرد.

"وهل يقع في وهم وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد "[52].

يفيد الاستفهام في هذا الملفوظ الحجاجي النفي والإنكار، فهو ينفي أن يقع تفاضل بين كلمتين قد أخرجتا من السياق الذي وردتا فيه، بأكثر من أن توصف إحداهما بكثرة الاستعمال أو ندرته، أو أن توصف حروفها بالخفة والسلاسة، إن هذا الاستفهام قد تجاوز معناه الأصلي المتمثل في طلب الفهم إلى النفي والإنكار؛ فالجرجاني لا ينتظر جوابا من خصمه بالنفي أو الإثبات، إذ إنه عالم بما يستفهم عنه، وإنما عمد إلى الاستفهام ليحمل المتلقي على التأمل في الحجة قصد الإذعان والإقرار.

" وهل تجد أحدا يقول: <هذه اللفظة فصيحة> إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"[53].

لا يستفهم الجرجاني هنا بقدر ما ينفي حصول قول أحد: إن اللفظة فصيحة من غير اعتبار لموقعها في التركيب، فهذا النفي المؤدي إلى معنى القصر (هل تجد...إلا وهو..) وجه المتلقي نحو الأخذ بنتيجة واحدة، هي: أن لا أحد يدعي الفصاحة للفظ خارج النظم والتأليف، نتيجة تدفع بالمخاطب إلى الإقرار، وقد قامت حجاجية الاستفهام هنا على التحامه بسلطة الإجماع.

" وهل قالوا: <لفظة متمكنة ومقبولة>، وفي خلافه< قلقة ونابية ومستكرهة>، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك، من جهة معناهما وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم {...}"[54].

يوجه الاستفهام هنا المتلقي إلى الإقرار والتسليم، وذلك عن طريق حمل المخاطب على الاعتراف بأمر ثبت عنده، إذ أن المعترض يرى الفضيلة للفظ من حيث كونه اختص بصفات كالتمكن والقلق والنبو، وقد أعاد الجرجاني صياغة هذه الصفات في أسلوب الاستفهام، أعاد به تأطير هذه الصفات ومنحها تفسيرا يخدم غرضه، حيث جعل صفة التمكن عبارة عن ذلك الاتفاق الذي يحصل على مستوى المعاني، كما أن التعبير بالقلق والنبو كناية عن سوء التلاؤم، وقد استخدم في هذا التفسير أسلوب القصر (هل قالوا...إلا وغرضهم)، ليحمل المخاطب على الإذعان لرأيه و يقر بالجواب الذي يوحي به السؤال ضمنيا.

الاستفهام والترتيب الحجاجي.

" **وهل تشك** إذا فكرت في قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) {..} أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة {..}، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض {..}.

إن شككت فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ {..} **وكيف بالشك** في ذلك. ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض {..}.

أفترى لشيء من هذه الخصائص {..} تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ **أم** كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟."[55]

ساق الجرجاني في هذا الخطاب الحجاجي مجموعة من الاستفهامات، التي اختلفت معانيها باختلاف أغراض الجرجاني منها ؛ فقد استهل خطابه الحجاجي هذا باستفهام إنكاري يريد به حمل مخاطبه على الإقرار، وذلك حين استند في استفهامه إلى سلطة دينية تتمثل في شاهد قرآني، اتفق البلاغيون على فصاحته وإعجازه،{ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي....}، وبهذا التضافر زادت حجاجية الاستفهام وطاقته وقدرته على دفع الخصم للإذعان و التسليم و الإقرار، ولا يخفى أيضا الجانب الحواري [56] الذي كان له دور مهم في توجيه الاحتجاج.

وقد بنى الجرجاني على الاستفهام الأول استفهاما آخر يدل على النفي (هل ترى لفظة منها)، وأتبعه بآخر يدل على الإنكار والتوبيخ إن هو شك فيما قدمه له (وكيف بالشك في ذلك)، ليختم هذا التعاقب الاستفهامي باستفهام تقريري (أفترى لشيء...)، يصل به إلى النتيجة التي يحاجج من أجلها وهي: أن الفصاحة تعود لما بين المعاني من الاتساق العجيب.

إن سلسلة الاستفهامات هذه قد جعلت من الخصم دون أن يدري مشاركا في منهج الجرجاني الاحتجاجي، لا سيما وأن الجرجاني قد "سلك في الإقناع بحججه مسلكا متدرجا في الإقناع معتمدا تراتبية الحجاج، تنطلق من الأدنى إلى الأقوى والأكثر تأثيرا"[57].

لم تأت استفهاماته الحجاجية عبثا، بل أخضعها لترتيب حجاجي جعله يضع الاستفهام في موضعه المناسب ليزيد من قوته وتمكنه في ذهن المخاطب، حيث انطلق في هذا الترتيب من نتيجة واحدة، هي: التسليم بضرورة ملاءمة اللفظة للنظم، ثم أتبعها باستفهام مقترن بالنفي متبوعا بقصر، ليقوم القصر هنا بوظيفة " نقل القوة الإنجازية للجملة من الدلالة على السؤال، إلى الدلالة على الإثبات " [58]، ثم أردفه بجملة شرط ربط فيما بينها بروابط حجاجية، (إن شككت فتأمل)، والجملة الشرطية عامل حجاجي مهم، لأنها تقيد قدرات المخاطب على التأويل والاستنتاج، ليختم هذا التعاقب الاستفهامي برابط حجاجي آخر هو "كيف"، " لكنه سرعان ما يقيده بعامل حجاجي <معلوم> مما ينقل الجملة من الدلالة على القوة الإنجازية "السؤال" إلى القوة الإنجازية "الاستنكار"[59].

قامت بلاغة الاستفهام في هذا الخطاب على خروجه من معناه الأصلي إلى معان بلاغية أسعفت المخاطِب في إثبات دعواه، وقد تنوعت هذه المعاني (نفي، إنكار، إقرار) كما تنوعت أيضا الأدوات الاستفهامية (أسماء و حروف)، ولا شك أن استخدامه المتكرر ل (وهل تجد .. وهل قالوا .. وهل تشك .. هل ترى .. وكيف بالشك .. أفترى) "أضفى على معاني الاستفهام البلاغي إيقاعا يعمق من موقف المتكلم من موضوعه "[60] ويضاعف من قوة التأثير في خصمه ، ويدفعه إلى الإقرار بحجته ودعواه.

انطلاقا من الأمثلة التي سبقت، نلاحظ أن المخاطَب لعب دورا أساسيا في بنية الخطاب الحجاجي عند عبد القاهر، من خلال إتاحته الفرصة له لصياغة المقدمات والنتائج، الأمر الذي سأعمل على بيانه في النقطة الموالية.

هـ . الحوارية.

قامت بلاغة الخطاب الحجاجي النقدي عند عبد القاهر في كثير من نصوصه على استحضار صوت المخاطب وإشراكه في صياغة المقدمات والنتائج، صياغة يلعب فيها الجرجاني دور الموجه؛ فالمخاطب وإن كان حاضرا في بنية النص الحجاجي ما هو إلا وسيلة من وسائل الجرجاني في عرض دعواه، إذ أنه يستحضر صوت الآخر حين يعمد إلى افتراض ردوده قصد الإجابة عنها.

قام الجرجاني بإشراك مخاطبه في نص حجاجي، أراد من خلاله توجيهه إلى استخلاص النتيجة بنفسه، متوسلا في ذلك بوسائل لغوية من قبيل: ضمير المخاطب الذي لازمه من بداية النص إلى نهايته " وهل تشك إذا فكرت .. فتجلى لك.. وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك.. إن شككت فتأمل .. هل ترى .. قل:.. واعتبرها .. أن تنظر.. فاعتبر..."

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ "[61].

نلاحظ أن الجرجاني قد توارى عن بنية الخطاب مستترا وراء لفظ المخاطب، مقيما حوارا ضمنيا مع مخاطبه، ليخلص إلى نتيجة مفادها "أن الألفاظ من حيث هي ألفاظ لا تتفاضل، و إنما القيمة تكمن في معاني النحو"، فهذه النتيجة هي نتاج تفاعل وحوار مع ردود الآخر المفترضة، يروم فيه الجرجاني إقناعه والتأثير فيه، وذلك عن طريق آلية الحوار التي تجعل من المخاطب . أو هكذا يبدو، عاملا مشاركا في الوصول إلى النتيجة ؛ فالجرجاني من خلال عقده هذه المحاورة، يستعرض الحجج التي يمكن أن تقوم في ذهن مخاطبه، إذ أن كل قول في خطاب الجرجاني مبني على اعتراض مفترض من مخاطبه مما يظهر أهمية المخاطب لدى الجرجاني.

يقول الجرجاني في نص حجاجي آخر:

"إن اعترف بأن ذلك لا يكون قلنا له: أخبرنا عنك، أتقول في قوله:

وتأبى الطباع على الناقل

أنه غاية في الفصاحة ؟، فإذا قال: نعم، قيل له: أفكان كذلك عندك من أجل حروفه، أم من أجل حسن ومزية حصلا في المعنى ؟، فإن قال: من أجل حروفه، دخل في الهذيان، وإن قال: من أجل حسن ومزية حصلا في المعنى، قيل له: فذاك ما أردناك عليه حين قلنا: إن اللفظ يكون فصيحا من أجل مزية تقع في معناه، لا من أجل جرسه وصداه."[62].

عقد الجرجاني من خلال هذا الخطاب محاورة افتراضية مع مخاطبه، يدفعه فيها إلى الأخذ بنتيجة أعدها له سلفا هي: أن اللفظ يكون فصيحا من أجل مزية تقع في معناه، لا من أجل جرسه وصداه، باستخدامه لآلية الحجاج التقويمي الذي يظهر في خطابه من خلال العبارات التي تدور فيه (قلنا له.. فإذا قال.. قيل له.. فإن قال.. وإن قال.. قيل له.. فذاك.. حين قلنا).

سعى الجرجاني إلى دفع الشك المتوقع عند المخاطب، من خلال إقامته لحوار مفترض معه، مما جعله يسمح بالتدخل المضمر للمتلقي في صياغة الحجج والبراهين، وهذا الإشراك لصوت الآخر يحفز من أجل الوصول إلى المعرفة.

ومن مظاهر الحوارية في خطابه أيضا، أنه قام بتوظيف أسلوب الأمر، وذلك حين استخدم فعل "اعلم"، الذي يصنف ضمن الأفعال التوجيهية التي تدفع المخاطب إلى إعمال ذهنه، في أكثر من موضع:

"واعلم أنك كلما نظرت وجدت..." [63].

"واعلم أنه قد يجري في العبارة منا شيء... "[64]

" واعلم أنك تجد هؤلاء الذين يشكون فيما قلناه..."[65]

" واعلم أن المخالف لا ينكر..."[66]

وقد خرج الجرجاني بهذا الأسلوب عن معناه الأصلي (الأمر)، إلى قصد إعمال الذهن عند المخاطب وتقرير الحكم له في قضية الفصاحة والبلاغة، كما استخدم هذا الفعل وسيلة لعرض أفكاره، مع ما فيه من التأثير في المتلقي عامة والتضامن معه، حتى يصل إلى نتيجة معينة.

خاتمة:

في خاتمة هذه الرحلة مع خطاب عبد القاهر الجرجاني البلاغي النقدي، الذي قارع فيه خصومه ومعترضيه حول فصاحة الألفاظ والمعاني، يمكن أن نصوغ بعض الخلاصات التي أفضى إليها البحث والتحليل وهي كالآتي:

- اتضح أن المقاربة البلاغية الحجاجية كانت ناجعة في تحليل النص واستنطاقه باعتباره بنية منسجمة، تشكلت بلاغته انطلاقا من مكوناته وسماته النوعية، وقد أسهم الوقوف على المقام التواصلي للنص وسياق إنتاجه، ودراسة بعض استراتيجياته الحجاجية من تعرف بلاغته النوعية والكشف عن طبيعته السجالية التناظرية.
- توخى الجرجاني في خطابه الحجاجي أسلوب المناظرة، الذي يقوم على الإتيان بحجج الخصم وتفنيدها والكشف عن عيوبها، متأثرا في ذلك بمنهج المتكلمين في الحجاج، باعتبار الجرجاني بلاغيا ومتكلما، نظرا لأبعاد القضية التي دار حولها النقاش، وتتجلى أساسا في إعجاز القرآن.
- تميز خطاب عبد القاهر بالحوارية التي أسهمت في صياغة خطابه الحجاجي، حيث لعب المخاطب دورا مهما في إنتاج الخطاب وتوليد الحجج وتوجيهها، كما أسهم أيضا في صياغة المقدمات والنتائج التي رام الجرجاني الدفاع عنها.
- كشف التحليل عن استثمار عبد القاهر الجرجاني ومعارضيه لأدوات وتقنيات حجاجية متنوعة، من قبيل الحجج العقلية والأوجه الأسلوبية اللغوية التي خرجت عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى، تشكلت حسب السياقات التي وردت فيها، وذلك ليدعم كل طرف موقفه، ويثبت آراءه في الفصاحة والبلاغة، قصد إقناع الطرف الآخر وتغيير رأيه.
- أبان التحليل البلاغي لخطاب عبد القاهر عن صراع نقدي بلاغي بين البلاغيين والنقاد القدامى حول تحديد مفهوم اللفظ والمعنى، وقد وقف الجرجاني في ذلك موقفا يرى أن الألفاظ لا تراد لذاتها، وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني، وقد جعل الصورة التي نادى بها الجاحظ، العمدة والأساس الذي يقع به التفاضل بين كلام وكلام.
- لم يخل حجاج عبد القاهر الجرجاني لخصومه من صراع مذهبي عقائدي، سعى فيه كل طرف إلى الانتصار لمذهبه وطريقته، فبينما مثل عبد القاهر الاتجاه الأشعري الذي يرى في الكلام كلامين نفسي ولفظي، وأن اللفظي دال على النفسي الذي هو الحق، نحا الاتجاه الاعتزالي منحى آخر، يرى أن الكلام ألفاظ وحروف منطوقة، وذلك كله في إطار التنظير لإعجاز القرآن، والدفاع عنه ضد العقائد والمذاهب الأخرى.

الهوامش:

1 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، 1992، ص 254.
2 القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق، محمود محمد قاسم، الجزء 16، ص 199. 200.
3 مقدمة محمود محمد شاكر لدلائل الإعجاز، صفحة (د)
4 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 63
5 نفسه ص 63
6 نفسه ص 63
7 نفسه ص 64.
8 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 407

9 نفسه ص 57
10 حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، طبعة 1981، ص 463.
11 دلائل الإعجاز، ص 58.
12 الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، منشورات اتحاد كتاب العرب دمشق، ط، 2001، ص 192
13 نفسه ص 25
14 نفسه
15 درويش جندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر، ط 1960، ص 109
16 الجاحظ، الحيوان، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط 1965، ص 132.
17 ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تح، علي فوده، مكتبة الخانجي القاهرة، 1994 م، ص 34
18 محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، 2016، ص 42
19 معجب العدواني وضياء الكعبي، الخطاب السجالي في الثقافة العربية، مقاربات تأويلية، ص 104
20 دلائل الإعجاز، ص 409.
21 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 421
22 نفسه ص 424.
23 نفسه.
24 نفسه، ص 422، 423.
25 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 422
26 نفسه، ص 254، 255
27 محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، 2016، ص 102.
28 القاضي عبد الجبار، المغني، ج 16، ص 199.
29 دلائل الإعجاز، ص 36.
30 نفسه، ص 45.
31 محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 142
32 دلائل الإعجاز، ص 45
33 كالزمخشري والسكاكي والقزويني
34 دلائل الإعجاز، ص 45
35 في بلاغة الحجاج، ص 136
36 دلائل الإعجاز، ص 403.
37 نفسه
38 نفسه، ص 421.
39 نفسه، ص 421، 422.
40 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 423.
41 في بلاغة الحجاج، ص 141
42 دلائل الإعجاز ص 63
43 نفسه ص 64.
44 عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان الرباط، ط 2013، ص 241.
45 دلائل الإعجاز، ص 255، 256.

46 في بلاغة الحجاج، ص 135.
47 دلائل الإعجاز، ص 36
48 نفسه، ص 48
49 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 46 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 46
50 نفسه، ص 407
51 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 407.
52 دلائل الإعجاز، ص 44.
53 نفسه.
54 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 45.
55 نفسه، ص 45، 46.
56 سيأتي بيانه في المحور الآتي.
57 إبراهيم أمغار، الحجاج في نص بلاغي لعبد القاهر الجرجاني، دراسة ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف وتقديم د. أحمد قادم و د سعيد العوادي.، دار كنوز المعرفة، 2016، ص 695.
58 نفسه ص 695
59 نفسه ص 696.
60 محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، ط 2015، ص 125
61 دلائل الإعجاز، ص 64.
62 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 424.
63 نفسه ص 399.
64 نفسه ص 400.
65 نفسه ص 405.
66 نفسه ص 423.